أ.د/ إسحق عبيد

فيلسوف "البدارى" الذي علمني الحكمة!!

في الصفحات التالية أقدم للقراء في كل مكان شهادة للتاريخ! نعم شهادة للتاريخ عن رجل عرفته منذ 37 عاماً، وأكتبها بمداد الصدق، وعلى أوراق الأمانة، لا أطمع من ورائها في شيء، بل أخطها بقلمي لإحقاق الحق ولا شيء إلا الحق، وهي بالتأكيد ليست عن شخصية عادية مكررة مثل الكثيرين الذين قابلتهم في رحلة حياتي العلمية.

وإسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب – جامعة عين شمس، هو ابن "البدارى" تلك البقعة الطيبة من أسيوط منبع الأفذاذ من الأدباء والمؤرخين والساسة، الذين أفنوا أعمارهم عشقاً لأرض الكنانة التي ما عقمت يوماً، بل هي دوماً حبلى بالعباقرة، والأفذاذ، حيث ولد هناك عام 1932م.

وهكذا، قدمت لنا أسيوط عدداً من الأعلام الذين حفظهم تاريخ أم الدنيا، وأم الحضارة، ولم لا؟ أليس منها حافظ إبراهيم، ومحمود حسن إسماعيل، وأحمد بهاء الدين، ومحمد الفحام، وزعيم مصر الخالد جمال عبد الناصر؟، وهكذا، فإن أستاذى اسحق عبيد ولد في منطقة ذات خصوصية حضارية في تاريخ أمنا جميعاً .....مصر.

لقد كافح ذلك العالم، الذي كان عصامياً ولم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، بل واصل العمل ليلاً ونهاراً، وواصل دراسته حتى حصل على ليسانس الحضارة الأوروبية من كلية الآداب – جامعة الاسكندرية، وعين معيداً بكلية الآداب جامعة عين شمس، وأوفد في بعثه علمية إلى جامعة نوتنجهام بالمملكة المتحدة حيث درس على يدى برنارد هاملتون، وهو أحد أبرز مؤرخى العصور الوسطى على مستوى العالم.

وقد أشاد المؤرخون الانجليز بأطروحته للدكتوراه عن "العلاقات بين روما وبيزنطة من

قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين عام 1204 م"، بل ووصفت أطروحته بأنها "مصححة" لأفكار سابقة مغلوطة عن الحملة الصليبية الرابعة، وخاصة في ما يتصل بدور البابا انوسنت الثالث في توجيه الحملة إلى تلك العاصمة الإمبراطورية.

وعاد ابن أسيوط أدراجه إلى أرض الكنانة، حيث تتلمذ على يديه الآلاف في مجال دراسة التاريخ الأوروبي الوسيط، والتاريخ البيزنطي، وتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وواصل رسالته العلمية خارج مصر بأن أعير إلى ليبيا، واليمن، والكويت، وشارك في مؤتمرات دولية فصار معروفاً في إنجلترا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وفي كل ذلك قدم دليلاً ناصعاً لا يحتاج إلى ذرة ريب في أن اسيوط الساحرة الجميلة المعطاءة أنجبت مؤرخاً مصرياً فريداً صاحب مكانة دولية لا تنكر.

وإسحق عبيد يا عزيزي القارئ هو المعادل الموضوعي لكلمة مصر!!، نعم هو كذلك، فإذا نظرت إلى أبرز الصفات التي تتمتع بها، سنجد إنه تجسيد حقيقي لها مثل: الوفاء والتسامح والمحبة وغيرها من صفات شعب بلادي الخالد .

ولقد دَرَّس والدي الأستاذ / أحمد عوض حماد منذ قرابة نصف قرن لاستاذي المفضال في مدرسة إخوان ويصا بأسيوط، وظل إسحق عبيد يتذكر ذلك بوفاء نادر المثال في عصر نجد فيه صغار التلاميذ يعدون دكتوراه أخرى في الجحود ومهاجمة أساتذتهم ، وفي مناسبات عديدة كان يشير إلى تتلمذه على يدي أبي، وكيف أنه أفاد من سلوكياته وأسلوبه في التعامل مع طلابه؛ على نحو دل علي أصالته الفريدة .

ولا أنسى عام 1976م عندما دَرَّس لدفعتي مادة تاريخ أوروبا العصور الوسطى وعلاقاتها بالشرق، وسأل الطلاب عن من حصل على تقدير جيد جداً في العام السابق، وعندما رفعت يدي وذكرت اسمي سألني إسأل والدك هل دَرَّس في مدرسة إخوان ويصا أم لا ؟ وكان ما كان من بعد ذلك من لقاء إنساني عاصف بينه، وبين أبي حيث انهمر شلال

الذكريات المشتركة في لحظة واحدة فارقة بينهما، ولقد تبناني ذلك العالم الفاضل المعطاء الذي لن أنسى ماحييت فضله بعد الله تبارك وتعالى، ومنذ أن عملت معيداً إلى أن صرت استاذاً لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أغفل اسم ابن أسيوط الفذ: إسحق عبيد الذي وقف بجواري مشجعاً، ومدعماً طوال رحلتي العلمية. !!

وهو بالتأكيد رجل المحبة، فما رأيته حاقداً على أحد، بل كان دوماً يتمتع بحب عجيب للجميع، ولذلك أحبه الجميع، وعندما رأيت بعض المواقف المؤسفة، كان يقول لي: "المشكلة في غياب المحبة!"، ولقد رأيت شخصيات قاسية أنانية، ليس لديها أدنى قدرة على العطاء وهي عموماً تعيسة في حياتها، وإذا بهذا المؤرخ الوفي المحب للجميع يتعامل معها ببراعة وبحب وكأنه الطبيب النفسي الذي يعالج جراح مرضاه النفسية.

ما رأيته يوماً ينفعل على أحد، أو يهين إنساناً أيا كان صغيراً أو كبيراً، بل صار واحة خضراء للمحبة لكل الناس وهنا قدرته الفذه على العطاء وتجاوز العقد والأحقاد إلى آفاق أرحب لأنه كبير لا يلتفت إلى الصغائر، وفي مجلس قسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة عين شمس كان رأيه هو الملاذ الأخير في مواقف عديدة احتدم فيها الخلاف والنقاش بين الزملاء .

وهو رجل التسامح، الذي رأى دوماً أن الأديان جميعها تصل بالإنسان إلى الله تعالى، ولذلك نظر إلى الحركة الصليبية كحركة عنصرية متعصبة مثلت كارثة حقيقية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ولذا لم يكن عجيباً أن هاجم الصليبيين، وكشف عوراتهم من منطلق أمانته كمؤرخ حقيقي راصد للعلاقات الدولية خلال تلك الحقبة .

وإسحق عبيد رجل التسامح هو الذي طلب مني أن أدعو له عند الكعبة المشرفة عندما كنت معاراً إلى المملكة العربية السعودية، وهو أيضاً الذي يردد العديد من العبارات القرآنية دون أدنى حرج، وهو نفسه الذي أعد مقالاً تاريخياً فريداً قررته على تلاميذي بقسم

التاريخ بكلية الآداب – جامعة عين شمس عنوانه، " شمس العرب تسطع على أرض النيل " أنصف فيه الفتح العربي لمصر على نحو أكد على مدى تسامحه وموضوعيته، وهو نفسه الذي أعد بحثاً عنوانه: " شمس العرب تسطع على باليرمو "،وهي عاصمة دولة النورمان في صقلية، وهي أحد معابر انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى، والتي ألف الإدريسي كتابه الرائع نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

وهو نفسه الذي دافع عن الإسلام ضد من يهاجمه ويصفه بالإرهاب والعنف والدموية؛ لذلك وضعت آراءه على موقع اسلام أون لين، وأشاد به الجميع لأنهم بالفعل أمام قامة علمية وأخلاقية نادرة، ولذلك لم يكن عجيباً أن أُرسل إليه خطاب من ا. د. محمود زقزوق وزير الأوقاف يدعوه إلى الإنضمام إلى عضوية المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وصار أحد أفراد مجموعة من أبناء مصر الأقباط الذين أنصفوا الإسلام مثل نظمي لوقا، ونبيل لوقا بباوي، وادوار غالي الدهبي وغيرهم من علماء مصر ومفكريها.

هكذا علمني أستاذي الحكمة من خلال صفات الوفاء والتسامح لأن الأديان جميعها لله تعالى ولا يصنع التعصب إلا قصيري النظر من البشر الذين لا يرون في المرآة إلا أنفسهم دون إدراك أن أمير الشعراء أحمد شوقي قال يوماً:

الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما

وإسحق عبيد – عزيزي القارئ – عاشق حقيقي لمصر الذي ما غادرها وما غادرته يوماً !، وكل يوم مر عليه من أيام عمره المديد كان نهر حبها يتدفق شلالات في أعماق روحه وقلبه وعقله ! ولم لا ؟ ألم يصفها بأنها " مرضعة حوض البحر المتوسط" ؟ وألم يكتب عنها أنها أم العالم وأم الحضارة، وأن عالم المصريات البارز جيمس برستد وصفها بأن فجر الضمير ولد على أرضها الخالدة خلود التاريخ !!

أما أسيوط فهي بالنسبة له مصر المصغرة، وهي معشوقة حقيقية لديه، وعندما

أوصلنا القطار إليها يوماً ما لمناقشة الطالب النابه / ياسر كامل في أطروحته لماجستير عن مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الرابع (1174 – 1185م) كانت معنوياته ترتفع تدريجياً كلما اقترب من عاصمة صعيد مصر، ومعشوقة النيل الخالد، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامات طفولية، وكأنه على موعد زفاف لمعشوقته أسيوط. ولم يكن وفاؤه لها إلا جزءاً من وفائه لأرض الكنانة ذاتها، وبالتالي فإن القضية كل واحد لا يتجزأ في نفس ذلك المؤرخ الفذ والفيلسوف الحكيم .

واسحق عبيد هو ذلك الحكيم الذي طالع أعلام التصوف الإسلامي، وناقشته في الملامتيه وهم طريقة صوفية تأثر أتباعها بفكرة النفس اللوامة، ولذلك كان دائماً يرى أن الزهد هو الخلاص الحقيقي من كارثة عبادة المال الذي يلهث وراءه الكثيرون، بل إعتقد تماماً في أن الغنى في الاستغناء وهي مقولة خالدة للصوفي البارز ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم الشهيرة التي هي جزء من التراث الصوفي الإسلامي الزاهر في العصور الوسطى، مع ملاحظة أن أستاذي معجب عموماً بالتجارب الصوفية في كافة الأديان على تنوعها واختلافها، لأن منبعها واحد فكأنها طريقة واحدة مجزأة.

إن حيوية ذلك المفكر المصري الأصيل تتجلى في تعدد منابع ثقافته الواسعة وتكوينه الفكري، فقد بحث عن الحقيقة لدى كافة الأديان، متسلحاً بعشق حقيقي للمعرفة أينما وجدت، ولم يكن سلاحه في كافة مراحل تطوره الفكري سوى الرغبة في الوصول إلى الحقيقة والتسامح الديني، ولذلك هاجم الكنيسة في أوروبا العصور الوسطى التي أقامت محاكم التفتيش ضد كل من عارضها، وقد خصص دراسة علمية مركزة عن جان دارك عذراء أورليان وبطلة حرب المائة عام بين فرنسا وانجلترا (1337 – 1453م) التي كفرتها الكنيسة، وأتهمتها بالهرطقة، وتم إحراقها، وفيما بعد تم إعتبارها قديسة !!، كذلك أعد دراسة علمية قيمة عن محاكم التفتيش، وفي كافة مؤلفاته كان يركز على أمراض تلك العصور من أجل

تجنبها في عصرنا الحالي.

وهكذا، تعلمت من فيلسوف البدارى الذي أتى إلينا من صعيد مصر كي ينير عقولنا، تعلمت منه الوفاء، والتسامح، والسعي نحو الحقيقة من أي منبع لها، ويضاف إلى كل ذلك "المحبة "لكل البشر دونما تعصب أو تحزب لأن ذلك يخالف ألف باء الحياة ذاتها!! .

وعلى مدى ثلاثة عقود ونصف من حياتي العلمية، صرت صديقا لأستاذي، وفي كل لقاء كان نهر عطائه متدفقاً للأحباب وما أكثرهم، والخصوم وما أقلهم، وقد ذكرني في ذلك بأبي الذي ردد أمامي نصيحته التي تفيض بالحياة: أعمل الخير في أهله وغير أهله!، وهي عبارة تنطبق تمام الإنطباق على أستاذي العلامة: إسحق عبيد.

وفي معرض تناولي لعطاء ذلك المؤرخ المصري الأصيل ابن أسيوط الفذ أتذكر أنه في إحدى برامج التلفاز وكان يوم البرنامج عيداً من الأعياد الدينية سأله المذيع لو كان بيدك الآن كارت معايدة إلى من ترسله ؟ فأجاب من فوره :إلى صلاح الدين الأيوبي الذي دخل بيت المقدس فاتحاً في 2 أكتوبر عام 1187م ولم يرق فيها قطرة دماء صليبية واحدة فقدم مثالاً فريداً وفذاً للتسامح في عالم العصور الوسطي الملطخ بالدماء !!.

إن ذلك الرد البليغ، هو تعبير حقيقي وصادق عن شخصية أستاذي ابن البداري الذي علمني الحكمة وقدم لي ولزملائي دروساً لا تنتهي في العطاء والسمو الروحي،والتعالي، والترفع عن الصغائر، فلا عجب إذا أحبه الجميع وصار ملكاً متوجاً على عرش القلوب !!وصار مسكنه بميدان الحجاز بمصر الجديدة ملتقى للجميع على اختلاف انتماءاتهم الدينية،والاجتماعية،والثقافية، فهنيئاً لك يافيلسوف البدارى يحب الناس، الذي هو الميراث الحقيقي الباقي لأن سيرة الانسان أطول من عمره، كما يقال في المثل الشعبي المصري الصادق.

ومن جانبي حاولت – قدر المستطاع – تكريم ذلك العلم المصري البارز، فأهديت له كتابي: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب وذلك عام 2000م، وذكرت في نص الإهداء " ..... الذي علمني كيف يكون إشراق العلم وسط دياجير الظلام ! "، كما ترأست مجموعة من الباحثين في تاريخ الحروب الصليبية،وأصدرت كتاباً تكريمياً له بعنوان: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (العصور الوسطى) وقد صدر عام 2002م، حيث سعد به استاذي غاية السعادة لأنه أدرك أن ثمار غرسه أينعت وصارت غابات حب وأدغال مودة بملء قلوب تلاميذه ومحبيه !!، ومن بعد ذلك خصصت عنه فصلاً في كتابي رواد تاريخ العصور الوسطى في مصر الصادر عام 2007م. وتناولت فيه ملامح حياته وإصداراته العلمية القيمة التي أثرى بها المكتبة العربية سواءً من تأليفه أو ترجمته حيث يوصف بالفعل بأنه حجة في اللغة الانجليزية التي كتب بها شعراً عذباً سلساً حتى أن المؤرخين الإنجليز أنفسهم شهدوا له بتلك البراعة المشهودة في لغتهم تأليفاً وترجمة منها إلى لغة الضاد التي عشقها هي الأخرى.

والآن أجد نفسي في حيرة محيرة وقلق مقلق، كيف أنهي هذا المقال عن ذلك المؤرخ الفذ؟ إن لغتي عاجزة ومعجمي اللغوي يرفع راية الاستسلام البيضاء! ومع ذلك سأستجمع مالدىّ من حصاد الهشيم المتواضع وكلماتي المبعثرة هنا وهناك وسأقول: شكراً جزيلاً ووافراً لفيلسوف البداري ا. د. إسحق عبيد الذي تعلمت منه الحكمة التي هي ضالة المؤمن، فأنت مثل قارورة المسك المعتق الفواح الذي عم كل تلاميذك ومحبيك وهم كثر، وقدمت مثالاً فريداً على المؤرخ العالم الزاهد في المناصب إلا منصب واحد باق هو: محبة الناس جميعاً ! وبوركت يا أسيوط يا من عشقك نيل بلادي إذ أنجبت أرضك المعطاءة الطاهرة ذلك الفارس النبيل والفيلسوف المحب للمحبة وابن الحكمة. د. اسحق عبيد أستاذي الذي لن أنساه ماحييت.

أ.د/ محمد مؤنس عوض
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعتي عين شمس والشارقة